الخطاب السياسي للدكتور إبراهيم الجعفري

تحليلات ورؤى

نص كلمة السيد رئيس الوزراء الدكتور إبراهيم الجعفري

خلال لقائه مجموعة من مثقفي ومفكري الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه المنتجبين وجميع عباد الله الصالحين..

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

في البداية أشكركم شكراً جزيلاً على هذه الفرصة التي أتنوّر فيها بما جادت، وفاضت به قريحتكم من أفكار، وإرهاصات، وهموم ومعاناة وتجربة، وهكذا يكون العقل دائماً متطوراً بتطور التجربة، يقول الإمام علي (عليه السلام):

(التجربة عقل ثانٍ).

هنا أود أن أشكر معالي الأخ وزير الثقافة (المقصود وزير الثقافة الأردني عام 2005) على هذه الفرصة الطيبة التي أشارككم فيها كمثقفين على مائدة الثقافة بعيداً عن كل شيء..

أجمل شيء عندما نكون مستمعين كطرف متلقٍ نكون منسجمين مع بعضنا، وبذلك يسهل على الإنسان المتحدث أن يتحدث بسرعة تتناسب مع عمق الوعي وسعته وقوته الذي يتمتع به المستمع، لذلك ربما سأكون سريعاً في الحديث.

بداية أبدأ من الإشارة الكريمة التي تفضل بها الأخ (أحد الحاضرين) بأن الثقافة شيء، والتربية شيء آخر، أنا من القائلين: إن الثقافة من مقولة التربية، وليست من مقولة العلم، وفي فقه اللغة وردت عشرة مفاهيم في (لسان العرب) لتحديد الثقافة، ولا أعرف هل من باب المصادفة، أم من باب التكلف في تطويع التعريف،

في أصل اللغة هناك عشرة تعريفات اشتهرت بها الثقافة، لهذا يقال العشري بين فقه اللغة والتعريف، وهل جاء مصادفة أم بتركيب ما؟

الثقافة على العموم هي من مقولة التربية، والمثقَّف أو المثقّف، أو القطعة التي كان الفارس العربي يصحبها في الحرب إذ كان يصحب معه قطعة من الحديد يقوّم بها سيفه الأعوج، أو رمحه، أو سهمه.
فثقف، يثقف، ثقافة إذا عدّل الشيء الأعوج، والثقف الذي يستهدف الآخر، ويصيب، ولعل كلمة ثقافة وإيجاد فن إلقاء الفكر في أذن المتلقي، وتبادل الأفكار بين المعطي والمتلقي، ومن ثم فإن الثقافة من مقولة التربية؛ لذلك لا أستطيع أن أتصور مثقفاً غير متلزم، وأعتبر أنه يعاني من أزمة، أزمة التزام، والمثقف بطبيعته ملتزم، ولا قيمة للثقافة بلا التزام، وأكون معكم صريحاً: قد أتصور مثقفاً غير سياسي معارضاً كان أو حاكماً، لكني لا أستطيع أن أتصور سياسياً غير مثقف، يريد أن يمثل، ويكون قدراً لشعبه من دون أن يكون مثقفاً!!.

كيف يسمح لنفسه أن يكون سياسياً، وقائداً، ومتصدياً من دون أن تكون له خلفية واضحة وعميقة، تسبر غور الوسط الاجتماعي بكل مكوناته، إجادة دور التعامل مع الآخر يتفرع من وعي الآخر، إذا لم يكن لك وعي كافٍ، وإحاطة كافية بالآخر، وانحداراته التأريخية، لا تستطيع أن تضع مقاسات الخطاب، بل الأداء قبل الخطاب الذي تحترم فيه، الناس ينظرون لنا أكثر مما يسمعوننا، وهم يحكمون على المسموع من خلال المرئي.

أزمة الأبناء مع آبائهم، وأزمة الزوجات مع أزواجهن، إنهم يسمعون كلاماً حلواً، وسلوكاً مُراً، ولطالما سقطت كثير من الشعارات والادعاءات، ضحية الادعاءات الكبيرة والنمطية العملية التي تسقط الشعار مهما كان كبيراً، الثقافة التي ورثناها من تأريخنا ثقافة المشترك، ثقافة الالتزام، الثقافة التي وردتنا من الخارج أكون

معكم صريحاً، وربما قد أكون غريبا: الثقافة، والحوار، والتنوع التي وُلِدت في أحضان الغرب، وُلِدت من موقع التضاد، والصراع والجدليات، فلو تتبعنا مسلسل الاختلاف وفهم الاختلافات في العقل الغربي منذ الخطوة الأولى لقوانين (دارون) الصراع من أجل البقاء والبقاء للأقوى، هذا صراع عجيب.
قصة الوجودات، وتطور الوجودات التي انتهت إلى مرحلة البشر (كما يرى دارون)، وهكذا استنسخ الطبقات الاجتماعية (هيغل) في الصراع الفكري، و(كارل ماركس) في الصراع الطبقي، إلى أن انتهت إلى (صاموئيل هنتغتون) و(فرانسيس فوكوياما) هكذا يفهم الإنسان الأخير ونهاية التأريخ، وهكذا يفهم (هنتغتون) صراع الحضارات.

بداية المسلسل الغربي قائمة على أن الاختلاف يعني الصراع، الاختلاف يعني الإبداع، أي ضم الأول إلى الثاني ليس ضمّاً كمّياً بل ضم نوعي، ماذا يعني أن تتزوج؟ يعني أن تضم عقلاً إلى عقلك، وإرادة إلى إرادتك، قد تتفق مرة، وقد تختلف مرة أخرى..
المجتمع المتطابق والعلاقة الزوجية المتطابقة تعني عقلية الإلغاء، والقمع، إلغاء الآخر، وتذويب الآخر، والاختلاف لا توجد فيه غضاضة على الإطلاق، بل على العكس إن من سمات المجتمع الحي هو المجتمع الذي لا تتفق فيه عقليات الآخرين في التفكير، وإرادتهم في التحرك.
نحن غير مسؤولين لماذا يوجد الخلاف، نحن مسؤولون عن فهم إدارة الخلاف، وتوظيفه، وجعله يمشي ببوصلة واحدة لبناء البلد، سر الحركة في المجتمع هو أن تجد تسابقاً وتفاوتاً في الاستنتاجات، وهذا شيء رائع وإلا ماذا تعني أن تملك مجموعة من الأولاد في أسرة يأكلون، ويشربون، إذن هم يتساوون مع الحيوانات!! أما إذا كانوا يفكرون إلى جانبنا فهذا شيء مختلف لا يحظى به سوى الإنسان، يجب أن نتوقع أن نتفق معهم مرة، وأخرى نختلف فيها، وكثيراً ما

نختلف، إذن هذا في الغرب موجود، نحن أيضاً يوجد في أعرافنا مثل هذا، وهذا مبدأ قرآني:
((قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)).

هذا هو المشترك، وعي الآخر والبحث عن نقاط الاتفاق، لنبدأ معه رحلتنا من حيث يعتقد، ربما ننتهي إلى حيث ما نعتقد نحن، لكن إجادة البحث عن النقطة الأولى التي تسجل سبقاً في مسار التعامل، وعلى ماذا نتفق، للأسف الشديد كثير من المجتمعات - وقد وقع بعض المثقفين في هذا الحضيض للأسف- يجيد فن قراءة الآخر على ماذا نختلف، ويبدأ بالإثارة، وإذا انغلق قلبه عنك لا ينفتح ذهنه إطلاقاً مهما كانت حجتك قوية؛ لأن قلبه انغلق، وكذا يجب أن نجيد فن فتح القلوب بالتعامل مع الجانب المعنوي والأخلاقي، بعد ذلك يجب أيضاً أن نفتح باباً آخر هو باب العقل بقوة البرهان والدليل، وهذا أيضاً مبدأ قرآني:
((فبما رحمة من الله لِنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)).

باب القلب يسبق باب العقل، وإذا انغلق قلب المتلقي لا قيمة للأدلة، ولا قيمة للاستدلال أبداً؛ لأنه لا يأخذ به، لذا يجب أن نجيد فن فتح قلوب الآخرين.
مرة أخرى.. ما هي علاقة الثقافة بالتربية؟
عندما نتحدث حديث القلب نكون وضعنا يدنا على السمات الأولى التي تشكل مشاعر الآخر، نتكلم بلغة الحب، ولغة التسامح، لغة الاعتراف بالآخر وعدم إلغاء الآخر، وهذه مسألة مهمة.

في تراثنا - قضية الموالي- التي ختم الأخ (أحد الحاضرين) حديثه بها، هذا كان السر الذي نزلت به الآية الكريمة مفردة (الموالي) لها تعريفان في القرآن:

- **من كان عبداً ثم تحرر.**
- **أو من كان غير عربي فأسلم.**

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أشار بجواز زواج النساء المسلمات من الموالي، سواء أ كان على الفهم الأول (أي: الذين كانوا من العبيد ثم تحرّروا) أو على الفهم الثاني (أي: الذين لم يكونوا من العرب ثم دخلوا الإسلام)، وهنا ثارت حفيظة البعض؛ فنزلت الآية القرآنية الكريمة:

((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)).

القرآن الكريم أعطانا نقطة ارتكاز رائعة كرّم الإنسان بما هو إنسان:

((ولقد كرّمنا بني آدم)).

بغضّ النظر عن كل الاعتبارات والموجات التي جاءت وعصفت بالمسرح التأريخي، والمسرح المعاصر، ومزّقت أوروبا، وعرّضتها إلى حروب ثقافات، ومهّدت للحروب، ثقافات تمهّد للسلم، وثقافات تمهّد لبناء الحضارة، فالحضارة لا تأتي من جرّة قلم، وكذا الحرب لا تأتي من جرّة قلم.

الحروب الأهلية ليست فقط نزعة معطٍ ، لكن توجد ثقافة متلقٍ يتقبل هذه الثقافة فيحوّل الانسجام والتعايش إلى حالة احتراب، يسهل عليه قطع الرؤوس وهدر الدم.. ثقافة سبقت ذلك قد تتحول هكذا ثقافات إلى مقدّسات كما تحوّل الكثير.

مثال ذلك الثورة الفرنسية عام 1789، فمهما شاء البعض أن يجعلها، أو يحاول أن يجمّلها ويزيّنها.. إلخ، ولكن تسببت بتداعيات في نفس أوروبا، حتى قال قائلهم في ميونخ (فيخته) في سلسلة محاضرات ألقاها في جامعة (ميونخ): بتميز الدم والعنصر اللأماني، كرد فعل على النعرة الفرنسية.

إلى اليوم يوجد جزء من الثقافة الفرنسية ذات طابع حوّل اللغة إلى مقدس، وحتى مصطلح "الفرنكوفونية" تحوّل من كونه تعبيراً عن مجموعة تتحدث باللغة الفرنسية في الأصل إلى تقديس للحالة الفرنسية، حيث تحوّلت اللغة الفرنسية إلى قـُدّاس يختزل القيم والمفاهيم حتى وصل الأمر بـ (جاك شيراك) (الرئيس

الفرنسي) آنذاك لأن يشترط في من يرشح لسكرتارية الأمم المتحدة إجادة اللغة الفرنسية!! ماذا لو أن كل أصحاب اللغات الأخرى اشترطوا نفس الشرط؟

في قضية العلمانية التي تفضلتهم بها... جميل أن نستحضر قول (هيغل) عندما نتحاور، ماذا نعني بهذا المصطلح؟ وأنا أتمنى أن لا نطبّقه على العلمانية فقط، نطبقه حتى على الإسلامية، أنا أعتقد أن الإسلامية لم تعد مصطلحاً واحداً، الذي يهدر الدم، والذي يقطع الرؤوس يدعي أنه إسلامي، والذي يحترم الآخر، ويتعايش مع الآخر أيضاً يدّعي أنه إسلامي، إذن عن أي إسلامية نتكلم؟ أرجو أن لا ينزعج علينا الإسلامي وأنا إسلامي، وإلا فليحدد هُويته قبل أن يسألك: من أين أنت؟ من الذي يمنع الآخر، ويُقصيه؟ من أنت لتهدر دم الآخر؟ من أنت لتدفن الآخر وهو حي، هل لأنه يختلف معك؛ حتى أعرف عن أي إسلامية يتكلم عنها مدّعيها؟

اسمحوا لي كذلك أن أتكلم عن العلمانية، أن نقول: إن العلمانية بالمطلق صحيحة، كما يقول الإسلامي بالمطلق صحيح، أخذنا جذور العلمانية، كيف تحدرت عبر الأجيال السابقة، عندما بدأت من (سامبون)، ثم جاءت إلى عصر (ميكافيلي) صراع تحت عنوان العلمانية صراع (إلغاء الآخروية) من خلال إلغاء الغيب والدين عن حياة الإنسان، هذا واقع في تاريخ العلمانية، نعم العلمانية الحديثة ربما تختلف، ولذلك لنحدد العلمانية التي تريد أن تحكم العلم، وموازين العقل، والنمو والتجرد عن ترسبات الماضي من خلال الانفتاح ومواكبة الحياة، هذا شيء جميل وليس لدينا عقدة في التعامل.

ما يتعلق بالوحدة في العراق، تأكدوا أن الوسط العراقي كثقافة ورثناها عن آبائنا، وأجدادنا شكلت أرضية تختنق فيها كل النعرات فكونوا مطمئنين، ولو أن ما تعرّض له العراق، يتعرض له أي بلد في العالم لم تكن له بنية تحتية ومناخ تربوي سليم؛ لتحوّل إلى رماد تذروه الرياح، يقتل الناس زرافات، ووحداناً تحت

عناوين طائفية، وترد الطائفة، وترد المنطقة المستهدفة والمنكوبة بردّ مضاد، إننا ندرك أهمية الوحدة الوطنية والتعايش المذهبي.

أنا على يقين أنكم اطلعتم على ما حصل في حادثة الجسر (جسر الأئمة)، ورأيتم ما أراد أعداء العراق، وكيف رد العراقيون، رد العراقيون بطريقة تجسدت بجسر الأعظمية الذي يربط بين الكاظمية والأعظمية، وليس جسراً يوصل بين جغرافيتين، بل كجسر يوصل بين طائفتين، وبين أبناء مذهبين، أُريدَ لهذا الجسر أن يقطع الصلة، ويحوّلها من تواصل إلى انقطاع وإلى احتراب، رد أبناء المذهبين رداً رائعاً من خلال الوحدة الوطنية، وأنا شهَرتُ باسم الشهيد "عثمان علي العبيدي" الذي ضحّى بنفسه لإنقاذ بعض الغرقى، هي ليست مسألة عثمان، أردت بذلك أن أرمز إلى الموقف السني الرائع لإنقاذ الشيعة الغرقى، وإطفاء غائلة النعرة الطائفية.

من هذا المنطلق... يأتي دور المثقف، لا قيمة لأن تتحول الثقافة إلى امتياز على حساب الآخرين بمنطق ثقافي استعلائي، ولا قيمة للثقافة إن لم تضفِ على المثقف التزاماً وتضحية، الزوج المثقف المضحّي الذي يتخذ من فرق الوعي، وفرق الثقافة بينه وبين زوجته مناسبتين مهمتين: أن لا يخطئ بحقها لأنه أثقف منها، وأن يبرر أخطاءها لأنها أقل منه ثقافة، أما أن نتخذ من الثقافة ميزة على الآخرين، وجعلها منطقاً استعلائياً، وبعضهم يذهب أحياناً لأن يصادر علاقة مقدسة - الزواج - بحجة: (أن زوجتي لا تفهمني)، أو (هناك فرق ثقافي بيني وبينها).

الثقافة التزام وتواضع وتبرير، فانت لا تخطئ بحق الآخرين لأنك مثقف، وتبرّر خطأ الآخر لأنه أقل ثقافة منك، وبذلك تضفي الثقافة والوعي التزاماً على المثقف الواعي، وهذا ليس ميزة وتطاولاً على الآخرين، هكذا ينبغي أن نفهم الثقافة، إذن دعوني أقول لكم: أن يقرأ الإنسان، وأن يتعلم، ويختزن، كما قال أحدهم: (حفظت

صحيح البخاري من أوله إلى آخره)، رد عليه: آخر: (زدت في السوق نسخة)، لا قيمة أن تحفظ القرآن والقرآن يلعنك:
(رُبّ قارئ للقرآن والقرآن يلعنه).

الثقافة الحقيقية التزام ووعي الآخر، إجادة فن التعامل مع الآخر، يتفرع عن وعي الذات ووعي الآخر، ثم تنسج نظرية التعامل مع الآخر، كيف أفكر أن الآخر يحمل من المشتركات ما بيني وبينه، هذه هي الانطلاقة القيّمة لكل الناس، كيف تنظر إلى أبناء الديانات، بل إلى الإنسانية كلها، كيف تشعر أنك وإياه عالم، كيف نؤنسن الفكر، الفكر إذا "تأنسن" سنلتقي على المشتركات، الدينية، والسماوية، وحتى الأرضية، العدل مفهوم اجتماعي، أنت قدّمت ثالوث وحدة البلد (مخاطباً أحد الحاضرين)، ومسألة الابتعاد عن الاستبداد، وتحقيق العدالة، العدالة مفهوم اجتماعي فالله (تبارك وتعالى) ليس اعتباطاً أن يتخذ مائة صفة (الأسماء الحسنى)، لكنه اتخذ العدل أصلاً من أصول الدين، لما يترتب من آثار تربوية:
((إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل).

أرجو أن تكون ثقافتنا مقرونة بالثقة، أن نقرأ تاريخنا بثقة، ونقرأ الأمر بثقة، فإذا غابت الثقة سنعيش عملية استهواء الآخر، وننظر إليه مع شعور بالدونية تجاهه.
الآن موجة في العالم كله اسمها "حقوق المرأة" لنرَ موقع المرأة في الأمس القريب عند المنظومة الغربية، المرأة دخلت كمصوتة فقط وليس كمرشحة عام 1924 في الولايات المتحدة، و 1945 في بريطانيا، و1977 في سويسرا، لاحظوا مصوتة، وإلى الآن من التقاليد المشاعة في الدول الغربية أن الزوجة تفقد صفتها العائلية، وتندمج بصفة زوجها، ويستغرب من العرب والمسلمين عندما يقول هو يحمل لقباً، وزوجته تحمل لقباً آخر.

في فرنسا لديهم ضمير باللغة الفرنسية مذكر ومؤنث، لا مثل اللغة العربية، لديهم وزيرة الدفاع لكنهم لا يقولون وزيرة الدفاع، يقولون وزير الدفاع، القانون لا يسمح حتى هذه اللحظة، دعونا نقرأ أنفسنا بثقة لنرى المرأة في القرآن الكريم، يحدثك عن المرأة قائدة سياسية، وبلقيس مثالنا:

((قالت يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم وأن لا تعلوا عليّ واتوني مسلمين ياأيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون، قالوا نحن أولو قوة وبأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين، قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة وكذلك يفعلون)).

تأمل في شخصية هذه المرأة التي تنقل بأمانة، المرأة التي تستشير، المرأة التي لا تغترّ، المرأة التي تعطيك رأياً وحكمة تتدوّر على مرّ الزمن:

((إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً)).

لماذا يطرحها القرآن الكريم؟ يشعرك أن المرأة يمكن أن تكون قائدة سياسية حكيمة وغير مغرورة.. لماذا لا نقرأ التأريخ بثقة؟ نخاف أن نقرأه بثقة؟ إذاً يوجد خطأ لنناقشه من دون أن نردّد أشياء لا نفقه معناها فنتحول إلى صدى لصوت الآخرين.

دعونا نقرأ تاريخنا بكل بصراحة هل فيه شيء خطأ، الذين يقرأون التاريخ ثلاثة من وجهة نظري، كما أن الذين يصنعون التأريخ ثلاثة، الذين يقرأون التأريخ: اما كقصة، أو مجال تحليل، او استحضار للتأريخ من اجل معرفة هل إنه إذا تكررت الأسباب ستتكرر النتائج، هذه القراءة الواعية للتأريخ، والذين يصنعون التأريخ ثلاثة: من يتحدث عن التأريخ، ومن يدوّن التأريخ ويكتبه، ومن يدخل في صناعة التأريخ.

منبر الجامعة يجب ان لا نستهين به، بدأت المشكلة بمفهومها العام من منابر التعليم، ومن حيث بدأت المشكلة يبدأ الحل، اذا لم نحرر الجامعة وحرم الجامعة من كل شيء، يحاول أن يضغط عليها الجامعة، وعلى الخطاب الجامعي، والمركب الجامعي، والثالوث الجامعي: المعطي، الأستاذ، والمتلقي.. الطالب، الوسيط، والمنهج، لا نستيطع أن نغيّر حالنا، ويجب أن نضع هذا أمامنا، كل هؤلاء تفرّعوا من الجامعات، كل هؤلاء من منابر العلم، الأستاذ لا يمكن أن يفصل بين شخصيته كمربٍ وتحصيله كمعلم، الطالب ينظر إليك، والمجتمع ينظر إليك هذا أكيد.

أعتقد أن مهمتنا كمثقفين مهمة تربوية؛ لذا يجب أن نحرّر عقلنا بالتفكير، وأن نشيع ثقافة الود والحب ووحدة الوطن.. ثقافة وحدة العراق كجزء من العالم العربي.

حين غزا صدام الكويت حاول أن يشيع ثقافة الضم، وهتلر في ألمانيا، وموسوليني في إيطاليا قبل أن يبدأ الحرب أشاعا ثقافة استلاب تلك الأراضي، ثقافة سبقت الإجراء، وعندما يكون الشعب مثقفاً تختنق كل النعرات، وعندما يكون مثقفاً واعياً سيعمل بإرادته، وكلنا نتفرع من هذه الثقافة، بودنا لو نبقى معكم وقتاً أطول، ونستمع لكم، شكراً وألف شكر، شكراً جزيلاً، وبارك الله فيكم.